آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية
السنة السادسة عشرة، العدد الأول، الربيع و الصيف ١٤٣٤ هـ.ق، صص ٣٥-٤٨

التوحيد: نشوء وارتقاء

اشرف بروجردی*

الملخص

عندما ندرس أسس العبودية فی الإنسان وعلی صعید کل الکائنات المتواجدة فی عالم الکون، نستشرف إلهاً یوصف بالخالق والرب والقادر والواحد والأحد والذی لا یؤیّن بأین ولا یستوعبه ظرفا الزمان والمکان حیث تواجده خارج نطاقی البادرتین المؤمی إلیهما وإنّما یقضی حاجة الإنسان إلی عبودیة إلاله، یکن علی صلة مباشرة بطبیعة ارتباط المخلوق بالخالق اکثر من معرفته به وهذا بدوره یؤدی إلی اقتناع الإنسان بإله واحد. لم تتبلور فکرة التوحید من حاجة المخلوق إلی عبودیة الخالق إذ من الممکن أن یسلک المخلوق طریقاً یؤدی به إلی متاهات تکن نابعة عن استدراک قد یسلک سبیلاً خاطئاً وبناء علی ذلک حین استعراض تاریخ الفکر الإنسانی لبلورة معرفة المخلوق عن الخالق، نلاحظ تواجد الوحدانیة والثنویة والتثلیث وأحیانا عبادة الأصنام وحتی نفی الإله بالمرة وبالتالی نفی العبودیة.

الکلمات الرئیسة: التوحید، الوثنیة، نفی الألوهیة، أصالة العقل، الدهریة، الثنویة، التثلیث.

١. المقدمة

تعتبر العبودیة ترجماناً لإقتناع الإنسان بوجود إله خالق مقتدر له الحکم یفعل ما یشاء ویقدّر ما یرید. ولقد برزت معالم سلوک الإنسان بصور مختلفة منذ بدء الخلیقة ومن حین تواجده علی وجه البسیطة حیث بادرت الأمم من خلال طقوسها بأداء مدی ولائها للمعبود وترسیم سبل العبودیة. فی خضمّ هذه التغییرات نلاحظ تواجد رسل دعوا إلی عبادة الرب وأسفروا عن

* عضو الهیئة العلمیة بأکادیمیة العلوم الإنسانیة و الدراسات الثقافیة
تاریخ الوصول: ١٣٩٢/١/٢٠، تاریخ القبول: ١٣٩٢/٣/١٥

تمسكهم بعبودية الخالق و وحدانيته ومهدوا الدرب لعبادة إله لـن يسـتوعبه الـزمن ولـم يحيطـه المكان وتتآتى طاعته عبر معرفة بنيت أسسها على ركائز الحقيقة ونادوا بشريعة تمهد الطريق لهذه المعرفة إذ تتجذر شعاب المعرفة فى سلوك تتصف بالطريقـة حيـث مـن الممكـن أن يتعـاطف الإنسان مع الحقيقة عبر الطريقة ولكن يبدو أنه من المستحيل مناوشة الحصول على الحقيقة عبـر الشريعة وحدها.

بعبارة أخرى لقد أكدت هذه النخبة المرسلة بأنّ العبودية تتبلور عبـر قبـول شـريعة تتجـذر أسسها فى الطريقة إذ أن مسالک الطريقة لن تكن على منأى من الشـريعة ولكـن يبـدو لنـا أن هنالک تمايز طفيف بين مفهومى الشريعة والطريقة حيث من الممكن الوصول إلى الحقيقـة عبـر الطريقة ولكن من المستصعب الحصول على الحقيقة عبر الشريعة وحدها إذ أن الشـريعة تسـرد قبول طقوس رسمتها مسارات هذه الأخيرة.

يبدو أن الفلاح يحالف من استمسک بشريعة بنيت أسسها على مسالک الطريقة التى تتبلـور من خلال المعرفة حيث أن الشريعة وحدها تكن عبارة عن معتقدات مجردة من معانيهـا لـو لـم تتبنى أسسها على ركائز من المعرفة التى تتبلور فى مسالک الطريقة والفلاح يحالف من استمسک بشريعة تبلورت على أسس معرفة تتجلى من خلال أضواء الطريقة.

بيد أن دعوة الأنبياء لعبودية الإله الواحد خرجت عـن صـراطها القـويم عبـر الـزمن و إثـر مناوشات الآخرين، و سيقت إلى الثنوية والشرک وعبادة الأصنام أحيانا؛ إذ أن الناس لـم تكـن لهم استيعابات متكافئة متساوية مع بعضها البعض لإسـتيعاب المعرفـة بالكامـل حيـث أن هـذه الاخيرة تكن فى تطور نحو تكامل مستمر تتجلى ثمارها فى عرفان يسـتوعبه الإنسـان حسـب طاقاته البشرية. نلاحظ أن العرفان يتبلور عند سالكى الطريقة اثر علم حضورى يتجلى من خلال إستبصار ومشاهدة يؤديان إلى معرفة الخالق. والمعرفة بدورها تكن عبارة عن معرفـة الآثـار لا الذات الإلهى حيث أن معرفة ذات الألوهية تعتبر مـن المسـتحيل و تكـن فـوق طاقـات الفكـر البشرى. فى ضوء هذه المعرفة تبرز إلى الوجود معرفة الانسان بنفسه وهـذا يـؤدى إلـى معرفـة الخالق حيث أن: من عرف نفسه فقد عرف ربّه. (نهج الفصاحة: حـديث رقـم ٥٤٩٤) فلـنعلم أن الكون بأكمله فى جهد و عمل كى يكتسب الإنسان هذه المعرفة بحذافيرها. وبما أن الإنسان هـو الكائن الوحيد الذى لديه طاقة فذة لإستيعاب سرّ الوجود وإماطة اللثام عـن وجـه الحقيقـة فـى لحظات عابرة ويستلزم سرد ذلک كراراً تواجده فى هذه اللحظات ألا وإن لكم فى الدهر نفحات، ألا فتعرضّوا لها (المجلسى، ١٣٩٦: ٧/ ٢٢١).

إنّ الآنات المتحلية بحلاوة وجود الإنسان تتفاعل مع الكيان الإنسانى وتبلور كينونته بأحلى

آيات الكون و لن يعوضها الإنسان بأى بادرة أخرى حيث «إن أهل الجنة لا يتحسّرون بشئ من الدنيا كتحسّرهم على ساعة مرّت من غير ذكر الله» (نهج الفصاحة: حديث رقم ١٠٩٧) وعلينا أن نسأل هنا هل بلورة هذه اللحظات لها معطيات خاصة؟ وهل ترتبط بتواجد إرادة فذة؟ أو إنها نابعة عن مصدر عين فيّاض لن يستوعبه الكل؟ والجواب هو أن هذه الحالة تبرز اثر معادلة الأخذ والعطاء وهى معادلة ذات طرفين؛ إذ أن الوجود الإنسانى يمتلک قدرة استيعاب الفيض الربوبى واكتساب العرفان والمعرفة شريطة أن يعرضها الإنسان للنفحات القدسية وهذه بدورها ترتبط بالارادة الإنسانية والتى تنبع من ذاتنا وفى هذه الحالة نلاحظ أن الذات الربوبى لن يهملنا ولو للحظة عابرة و لن يرمينا فى بوتقة النسيان بل يفتح لنا مصاريع العرفان والمعرفة بمفاتيح رحمته لأن «من أخلص لله أربعين صباحا، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» (غررالفصاحة، حديث رقم ٥١٢٢).

نلاحظ إثر هذه الحقيقة الصارمة أنّ جهودنا وسلوكنا لن تذهب سدى بل تؤدى إلى الحقيقة «سَنُريهِم آياتِنا فِى الآفاقِ وَفِى اَنْفُسِهِم حتى يَتَبَيَّنَ لَهُم اَنَهُ الحَقْ اَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِکَ اَنَهُ على كُل شَيئٍ شَهيد» (فصلت: ٥٣). والمراد من الذكر الحكيم هو أنّ الإنسان يمتلک طاقة استيعاب حقيقة العالم بحذافيرها لكن ظاهرة كهذه تتطلب سعى الإنسان و أى سرّ يكمن فى هذا الأخذ والعطاء والذى قلّ طالبيه وساعيه على حد سواء وقلّ الذين يتفكّرون فى مؤلّفات العالم ومكوّناته بالرغم من تعاطيهم المستمر مع معطيات وحقائق العالم الذى يحيطهم ولو أراد الإنسان أن يستوعب مكوّنات الخليقة فلينظر أولا إلى الآفاق ثم يتفكر فى الخلق ومن بعده يستبصر فى نفسه كى يتقرّب إلى الحقيقة البحتة ويستسقى من فكره الذى يضئ كيانه ويجلى روحه فالفكر مستوعب من العقل والعقل يهدى إلى عبودية الرحمن حيث أن «العقلُ ما عُبِدَ بِهِ الرَحمان وَاكتُسِبَ بِهِ الجِنان» (غرر الفصاحة: حديث رقم ٧). ثم بعد ذلک يعرض الإنسان مكتسباته المؤاتية كى يستمد الخلق منها ويسترشد بها ويتّبع أحسن القول وينقّى خير ما قيل بهذا الصدد «فبشّر عِبادى الذّين يَستَمِعوُنَ القَول فَيَتَبِعوُنَ أحْسَنَه» (الزمر: ١٧، ١٨).

على هذا الأساس نلاحظ مداولة التوجه إلى العقلانية فى الأوساط البشريّة حيث أنّ ذوى العقول والنخبة المتفكرّة يبادرون بتنظيم سلوكهم على ضوء مكتسبات العقل؛ فالفكر الذى ينبع من المعرفة يستوعب الحقيقة وترافقه المحبة والحب لأن المعرفة تعتبر بداية العشق ومدخلا اليه.

نحاول فى بحثنا هذا أن نتطرق إلى كيفية نشوء التوحيد وعبادة الإله الواحد منذ فجر الخليقة بغية ترسيم خارطة الطريق إلى الوحدانية.

٢. هل التوحيد مضمر فی الذات الإنسانی و فطرته؟

عندما نتصفح المستندات المكتوبة قبل ميلاد المسيح عليه السلام بألفی عام نلاحظ بالرغم من تواجد مظاهر الوثنية فی الآثار الغير المكتوبة لتلكم الأمم كتقديم القرابين لآلهتهم أو اختصاص الهدايا والنّذر لهم أو طلب الغفران ورفع حوائجهم منهم أنّ المخطوطات المتبقية من هؤلاء الأقوام تشيد إلی عبودية الرب الجليل و الأعتراف بوحدانية الأله. فالمستندات المتبقية من أيام فراعنة مصر أی ألفين عام قبل ميلاد المسيح عليه السلام تنوّه إلی: «اِنَ اللهَ هُوَ الواحِد الأبدی، اِنَّهُ اَبَدی غَيْرُ مَحدودٍ، وَهُوَ يَدومُ إلی اَبَدِ الدَّهرِ وَقَدْ دامَ طوُلَ أزمان لاتُحْصی وَسَوُفَ يَدُومُ طوُلَ الاَبَدِيـهِ كَلُها» (الصباغ، الأحناف، د.ت، ص ٣١). ونلاحظ نفس المفهوم مذكور فی آی الذكر الحكيم: «وَلَئِن سئلتهم مَن خلق السموات والأرض ليقولُنّ اَللهُ» (الزمر: ٣٨). وهكذا نلاحظ نفس المفهوم مذكوراً فی سورة المؤمنون فی آيتی رقم ٨٤ و ٨٩ وكذلک فی الآية التاسعة من سورة الزخرف و التی تشير إلی الكون وخلقه ومكونات الخليقة حينما تطرح الآية أجزاء الخليقة وتسأل المشركين والكفار من الذی خلقهن يقولون الله. ومفهوم كل ذلک أن العبودية تكوّن جزءاً من فطرة الإنسان وتكون متساوية لدی البشر وثانياً أن الإعتراف بوجود إله واحد يكون مضمراً عند البشرية جمعاء «وإذْ أخَذ ربُّکَ مِنْ بَنی آدم مِن ظُهُورهِم ذرِّيَّتهُم وأشهَدَهُمْ على أنفُسِهم ألستُ بِربِّكُم قالوُا بَلی شَهدنا أنْ تَقولوا يَومَ القيامَه إنّا كُنّا عَنْ هذا غافِلين» (الاعراف: ١٧٢). فيكون بذلک نتاج هذه المعطيات الدينية أن نعتبر البشرية بأجمعها عبّاد الله وموحّديه بل يمكننا القطع بأنّ ما ظهر من الشرک و الإلحاد تكن نابعة عن مسار خالفت الفطرة البشرية وذهبت إلی ما هو نقيض من الوحدانية وبرزت إثر ما تبنتها البشرية حين سلكت دروبا شكّكت فی التوحيد وتبنّت الوثنية بعيد ما تنائت عن التوحيد.

وهكذا نلاحظ أن الإنسان قد أقرّ بوحدانية الإله منذ تواجده على وجه البسيطة من منطلق فطرته. إذا علينا أن نتساءل منذ أی زمن برزت فكرة الشرک وتجلّت معالم الوثنية؟ وعلى أية معطيات خالف الانسان بوادر فطرته؟ وكيف يمكننا اجابة هذا السؤال بأن منذ أی وقت ظهر الخلاف فی الفكر البشری كی يتنائی عن الوحدانية والتوحيد ويجعل للاله شريک؟ على هذه الوتيرة نلاحظ أن الإنسان عند نشوئه وتعلّقه بحياة بسيطة كان يتمسک بالوحدانية فی قرارة نفسه فكيف تحول إلی عبادة الأصنام وبادر بنفی الإله الواحد الأحد؟ وفی ضوء أية معطيات برزت الوثنية فی معتقداته؟ و ظهر الشرک فی بوتقة وجوده؟ و كيف يمكننا الإجابة على هذا السؤال الكامن فی وجودنا بأن منذ أی وقت برز الخلاف فی الإعتقاد بأن الله هو الواحد الأحد الفرد و توجهت البشرية نحو الشرک؟ وهل يمكن القول بأن ظهور الرسل فی حياة الإنسان ودعوتهم إلی

التوحيد من خلال المعرفة وعلى أساس التنوير ونفى ما عداه كى تتكامل معرفتهم عن الخالق والمخلوق وتستكمل الصورة عندهم بدوره أصبح مصدر نقاش وتضارب الآراء؟ أو إن فهم الإنسان و استيعابه من فكرة الألوهية هو الذى دفع به إلى الإختلاف فى كيفية عبوديته حيث ادعى بضرورة رؤية الرب كى يعبده؟ أو حسب بعض الآراء والرؤى برز الخلاف على ركيزة اختلاف مصالح الخلق؟

يعتقد العلامة السيد الطباطبائى أن الخلافات تتصنف وتكون على ضربين فمنها ما هو نابع عن الطغيان و الظلم اللذان تتجذران فى ظاهرة الدين وفى نفس الوقت يمكن أن يكون متجذراً فى الفطرة والغرائز البشرية والخلاف الثانى الذى يتشعب من أمور دنيوية أدى إلى التشريع و وضع القوانين الدينية حيث بادر الرب إلى تسوية الخلافات البشرية بواسطة الشريعة ونوّر لهم الدرب المستقيم والصراط القويم إذ يهدى لصراطه المستقيم أياً يريد ومن يشاء (الطباطبائى، ١٣٦٣: ٣/ ٢١٤). وهل يمكن القول أن ارتقاء الوعى عند البشر أدى إلى نشوب الخلاف بينهم؟ لعل الآية القرآنية الكريمة ترشدنا إلى هذه الفكرة حيث: كانَ الناسُ أُمةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النّبيينَ مُبَشّرينَ و مُنذِرينَ وأُنزلَ مَعَهُما الِكتابَ بالحَقِّ لِيحكُمَ بين اَلنّاس فيما اخْتَلَفوُا فيه وَمَااَختَلَف فيه الاَّالَّذينَ أُوتُوه مِن بَعدِ ما جائَتْهُم البَيّناتَ بغياً بَينَهُم فَهَدى اللهُ الَذينَ آمَنوا لِما اخْتَلِفوُا فيهِ بالحَق بإذنه وَاللهُ يَهدى مَن يَشاءَ إلى صِراطٍ مُستقيم (البقرة: ٢١٣). وكذلك فى سورة البيّنة حيث تسرد الآية: وَما تَفَرَّقَ اَلَّذينَ اوُتُوا الكِتابَ الاّ مِن بَعدِ ماجائَتهُم اُلبَّينه (البينة: ٤). وبذلك نلاحظ أن البيّنة ظهرت للذين نزل الكتاب عليهم وبعد نزوله برز الخلاف بينهم. ونحن نتسائل هل البيّنة التى كانت فصل الخطاب هى التى أدت إلى نشوب الخلافات؟ فى حين أن البيّنة تعتبر الدليل الواضح فما هى علة اعتبارها منطلقا للخلاف؟ يرى المفسّرون أنّ هذه الحالة تتجذر فى الحالات النفسية و خاصة الحسد و من الصعب حصول دليل قرآنى لهذه الحالة إذ لا يمكن استنباطها من آى الذكر الحكيم بل ينوّه المصحف الكريم بشكل عام إلى نشوب الخلاف أثر ظهور هذه الحالات وعلى أى حال فإن ارتقاء الفهم البشرى وازدياد المعرفة لدى الإنسان يؤدى بشكل عام إلى استنباطات مختلفة واستدراكات متضاربة عن مفهوم الدين.

نلاحظ أن الله يشيد القول أن أول خلاف نشب فى البشرية ارتفع اثر التمسك بالدين حيث تمكن هذا من تقديم حلول لهذا الخلاف وفى نفس الوقت ينوّه بأن هذه الآلية أصبحت رويداً رويداً منطلقاً لخلافات أخرى و وجدت أرضيتها فى الدين نفسه.على أن حاملى هذه الخلافات كانوا هم دعاة الدين وحملته فأخذتهم الحمية إلى متاهات نشبت من نفسانياتهم التى كانت تدعوهم إلى الظلم و الطغيان وهذا المفهوم يستسقى من آى الذكر

الحكيم: «وَما كانَ الناسُ اِلّا اُمة ًواحِدَة فَاخْتَلَفُوا ولولا كَلِمَه سَبَقَت من ربک لَقُضِـیَ بَیـنَهُم فیما فیه یختلفون» (یونس: ١٩) وكذلک من الآیة: «وَما تَفَّرَقوُا اِلّا مِن بَعْد ما جائَتْهُم اُلعِلْـم بَغیاً بَینَهُم وَلولا كَلِمَة سبقت من ربک إلی اَجَل مُسَمی لَقُضی بَینَهُم وَاِنَ الذین اورثوا الكِتابَ مِنْ بَعد هم لفی شک منهُ مریب» (الشوری: ١٤). ولعل ظهور الأنبیاء بین الناس حصل بغیة تمهید الدرب للوصول الی الحقیقة وتنویر الفكر البشـری لتطـویر سـبل الإنـارة والإطاحـة بالخلاف المتواجد لدی البشریة جمعاء. وهذا ما یعبّر عنه جان ناس حین یقول: وهب الدین فی صورته البدائیة للإنسان طاقة استدراک معالم الطبیعة والتعرف علی ما حوله من القـوی الطبیعیة والنفوس البشریة البائدة وأرواحهم و كذلک الطاقة الكامنة فی وجوده كـی یسـلک دربا متمایزا یؤدی إلی تأسیس منظومة اجتماعیة عبر مسالک خاصة. وبعد مضی زمن علی تلكم البادرة تمكن الفكر البشری أن یتطور وتعرّف الإنسان علـی علـل الحـوادث الطبیعیـة ونتاج تتابع الظواهر من خلال التجارب وتبلورت علاقة الإنسان بما یحیطه فی نطاق واسـع وتعاطف الفكر البشری مع ناشئة «أرباب الطبیعة» و «كبار الالهة» واثر هـذا السـلوک إلـی فكرة الإله الواحد (ناس، ١٣٥٤: ٥).

نلاحظ من جهة ثانیة أن الله یری هذا الأمر شیئاً متآتیاً مع الفطرة الإنسانیة حیث معرفـة الرب تنبع من صمیم الوجود الذی هو صنع الرب: «فأقم وَجْهَک لِلدین حنیفاً فِطرَ الله التـی فَطَرَ النّاسَ علیها لاتبدیل لِخَلْق الله ذالِکَ الدین القَیِّمَ وَلكِنْ اكثَر الناس لایَعْلَمـوُن» (الـروم: ٣٠). تدلّ مفاد هذه الآیة الكریمة علی الجمع بین الفطرة والجهل حیث ترشـدنا مـن جانـب إلی أنّ الدین یضمر فی الفطرة البشریة ومن جانب آخر تشیر إلی أنّ أكثر الناس لا یعلمـون ولا یمكن الجمع بین هاتین الظاهرتین فكیف الفطرة والجهل؟ إذا یمكـن القـول بـأن نشـوء الإختلاف فی الدین ومجانبة الطریق القویم والهدی المستقیم هو نتـاج جـور العلمـاء الـذین كانوا یحرّفون الكلم عن مواضعه و یبادرون بتأویل كتاب الله (الطباطبـایی، ١٣٦٣: ٢/ ٣٣٤). إذاً فالخلاف فی الدین لن تنبع من الفطرة لأن الدین یكون أمرا فطریا و الفطرة لن تتوائم مـع الخلاف ومن جانب آخر فإن الفكر وكیفیته یبلور لدی الإنسان طاقة محـدودة یصـدّنا عـن تبدیل نوعیة سرد أفكارنا وتغییره بأشكال أخری حسب تعبیر میشـال فوكـو الـذی یقـول: «محاكاة الفكر فی الصمت هو فی الواقع ضرب آخر من الفكر لن یتطرق لـه الإنسـان قـط» (فوكو، ١٣٨٢: ٢٨). إلّا إذا كان مسار الفكر مهدیاً نحو استدراک الحقیقـة واكتسـاب معرفـة الكون وخالقه و لذلک نلاحـظ أنّ المصـحف الكـریم یضـع العلمـاء فـی عـداد الألـوهیین والمتعرفین الحقیقیین علی وجود الخالق: «اِنَّما یخشَی الله مِنْ عِبادهِ العُلَماءُ (فاطر: ٢٨).

۳. تأريخ الألوهية و التوحيد

لا تكون لدينا صورة واضحة عن فجر الألوهية والتوحيد ولكن توجد إيماءات عن عبادة الـرب فی كل الأزمنة والعصور. دعونا نفترض أن الإنسان فی بداية الخليقة من منطلق الفطرة كان موحدا لكن تبدلات الأحوال أدّت به إلی أن يصبح مشركا أو وثنياً إثر التفكر فی معطيات الكون وعـدم استطاعته من تقديم حلول مناسبة الأسئلة كانت آن تطرح نفسها عليه حول مسـتجدات الخليقـة ولأنّ مدی استدراک الإنسان كانت تشوبه النقائص فالأجوبة ظهرت غير متكاملة وبذلک كثـرت الفروض وزادت فی الطين بلّة إذ أن الأجوبة أتت علی مقدار استيعاب الإنسان عمّا يحيط به وإثر ذلک نمت وتطورت الفروض بهذا الصدد. علی هذا الأساس إنّ إحدی الفرضيات البشرية حـول خالق الكون جاءت بتجسيد إله يكون ملموساً للبشرية تدركه الناس وتقابله وجهاً بوجه وبالتالی جعلت لمظاهر الكون آلهة مما أدی إلی تجسيد تلكم المظاهر فی أوثان جسّـدت الألوهيـة فـی نماذج شتی عبر القرون والأعصار، من الوحدانية إلی عبادة آلهة متفرقة وحتی سلوک الدرب نحو تماثيل تجسد الإله و تبرز أنّ الممثل للخير لن يستطع أن يشيد بالشر وعلی أسـاس ذلـک فـإنّ ربّ الأرباب قد وضع تدبير الأمور حسب معطياتها فی يد مقدرة إحدی الآلهة كـی يـدبّر أمـور الخليقة وبعض هذه الأرباب تخلق «الشرور» أحياناً كالجنّ ولذلک يجب عبادة الآلهة المنسـوبة إلی تلكم النماذج كی تصان الأنفس البشرية منها وحسب ذلک وجدت آلهة للشرّ وآلهة للخير.

من جانب آخر نلاحظ آن الآلهة المتواجدة علی هذا النهج تفتقر إلی كونها خالقاً للكون لأن الربوبية قد تقوم بتدبير أمور الكون ولكن تختلف عن كونه خالقاً للبسيطة ونلاحظ أن كل من كان ينسب تدبير أمر الكون إلی آلهتهم لم يتمكن من انتساب الخلق إليها.

من الملاحظ أنّ أهل مصر القديمة وذلک من خلال المستندات والمخطوطات المتبقيّة مـنهم يشيروا إلی أنّ ألوهية أرباب تتميز بهذه الميزة الخاصة؛ وقد تشير الرسوم المتبقية من تلكم الحقب إلی أشكال ملموسة ومحسوسة متمايزة عن بعضـها الـبعض (بـی واريـز، ۱۳۸۵: ۵۰۹). ويـری البعض أن أهل مصر القديمة كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة فی فترات من تاريخهم وقد تداولت فكرة تعدد الآلهة من مصر القديمة فی تاريخ الفكر البشری خاصة فی قری وأرياف هـذه البقعـة مـن الأرض والتی أصبحت منطلقاً لتكوين المدنيّة فی كل من الرافدين ومصر ويرجع زمن هذه البادرة الی الألفية الرابعة قبل ميلاد المسيح عليه‌السلام (بمفورد باركز، ۱۳۸۰: ۵۹).

تتواجد نظرية أخری حول هذه الظاهرة تشير إلی أنّ «الإنسان بادر فی بداية أمره إلی عبادة ربّ الكون باعتباره خالق البسيطة وآمر الوجود والخليقة وفعّال السماء و الأرض». لم يظهر هذا

الإله فی الرسوم المتبقية من تلکم الحقب ولم يمتلک الکهّان والرهبان لتقديم الخدمة له وکان شأنه أولی من أن يعبد بواسطة الإنسان و ذوی النفوس ورويداً رويداً غاب هذا الإله عن النفوس البشرية و وضع فی منأی عن متناول الناس بحيث تصور الإنسان أنه لا حاجة إليه وأخيراً قيل عنه بأنه غاب عن الساحة البشرية (آرمسترانج، ١٣٨٥: ١٩). لذلک نجد فی التاريخ أرباب متفرقة يتناول کل منهم جانباً من الخليقة لتدبير أموره لا خلقه وتکوينه. فی ضوء ذلک نلاحظ أن الصابئة و البراهمة و البوذيين بادروا بتجزئة شؤون العالم إلی قطاعات متباينة فجعلوا لکل قطاع الهاً فظهر إله السماء وإله الأرض وإله الحيوان وإله النبات وإله البحار وأصبحوا يعبدون هذه الآلهة بدلاً من الرب الواحد الأحد و يستشفعون بهذه الآلهة للتقرب من إله الکون وبعيد ذلک بادروا بصنع أوثان لهذه الآلهة تظهر ميزات آلهتهم (الطباطبايی، ١٣٦٣: ٢٩/ ٨٩). من الممکن ملاحظة نفس البادرة عند المصريين من خلال الرسوم المتبقية منهم حيث تجسيد الآلهة بأشکال متنوعة تتمايز عن بعضها البعض. عند دراسة تاريخ الأديان و المعتقدات نلاحظ أن الآثار المتبقية من عصر الحجر وما قبله مستندات تفيد إلی صورة مرأة منقوشة ومحفورة علی الرخام و يری دارسو معالم التاريخ أن الصورة المتبقية من تلکم العصور آن لم تشر إلی امرأة خاصة وإنما تظهر معالم الأمومة التی تتلخص فی الأنوثة (بی واريز، ١٣٨٥: ٥٠٨).

وأما الآريون لم يبادروا بتقديم القرابين لمعالم الشر والشياطين و لم تکن لديهم طقوس لإزاحة سيئاتهم؟ بل کانوا يقومون بتقديم القربان لمعالم الخير لاستجلاب رضاهم و تبجيلهم بغية اکتساب رضاهم (الرضی، ١٣٤٣: ١١٠). فمن هذا المنطلق بدت ظاهرة بروز الأوثان لمعالم الخير والشر علی السواء وهذه الظاهرة حسب اعتقادهم لن تکن منافياً مع الاعتقاد بوجود إله واحد وإثر ذلک بدت ظاهرة الثنوية وبالتالی برزت بادرة الشرک حيث الأرباب بدلاً من «الرب» وحيث تقسيم مهام العالم بينهم لکل منهم مسؤولية ادارة جزء من العالم و کل هذه الآلهة تبادر بعبادة الرب الواحد وکذلک الإنسان لا مناص له من عبادة الرب الواحد إنّما يستشفع بهذه الآلهة کی تقربه من رب الأرباب.

إنّ سلوک هذا الدرب الوعر أدی إلی ظهور الوثنية فی ثنايا التاريخ حيث عبادة آلهة متفرقة أخذت منأی الوثنية إذ أن الخير والشر تعتبران صورة عامة عن کل ما هو مستحسن وغير مستحسن؛ لکن العلامة الجعفری يعتقد أن تاريخ الفکر البشری لن يتوائم مع الثنوية يوما ما فی خضمّ المعتقدات حيث أن الثنوية الحقيقية هی أن نعتقد بوجود إلهين لکل منهما ذات يوصف بواجب الوجود و جامع صفات الخلق و الربوبية لا حد ولا نهاية لکليهما (جعفری، ١٣٦٢: ٢/ ٤٨). و يشير التاريخ أن «مانی» مؤسس الثنوية الذی يراه البعض رسولاً والذی استمرت ديانته

لألف عام، أن فی العالم مظاهر الخیر والشر علی السواء وهذا ابن الندیم هکذا یوصف المانویة حسب تعبیره: «أنّ منطلق العالم قام علی أساس کونین احداهما تجلی فی النور والآخر برز من الظلام وکانا منفصلین عن بعضهما البعض» (تقی‌زاده، ۱۳۸۲: ۱۷۱). وعلی سبیل المثال إنّ اعتقاد العیلامیین کانت تتبنی علی رکائز عبادة مظاهر الکون والطبیعة وتتجلی آلهتهم فی أرباب وفور النّعم (الرضی، ۱۳٤۳: ۳٥). و کذلک تبرز فی بعض الشرائح الإنسانیة عبادة الشمس وهذا ما تدل علیه الرسوم المتبقیة علی الأوانی الخزفیة المنتسبة إلی تلکم العصور و الملفت للنظر و الانتباه أنّ حیاة قاطنی الفلات کانت تسیر علی درب الاعتقاد برب واحد فکانوا یعتقدون أنّ الخلیقة تکن حبلی بالاحداث ولن تلد جدیداً وعلی خلاف اعتقاد أهل مصر الذین کانوا یعتقدون بذکوریة مصدر الحیاة فإن قاطنی الرافدین جعلوا هذا المصدر منتسبا للأنوثة (المصدر نفسه: ٤٠).

وکذلک نلاحظ أنّ الأقوام التی تبعتهم کالسومریین والآثوریین والبابلیین تبنّوا الإعتقاد بتعدد الآلهة وجعلوهم ضمن مرتبات کانت ترتبط بالخصب والأجزاء المثمرة من العالم (بی واریز، ۱۳۸٥: ٤٠). ومن خلال المخطوطات المتبقیة من أقوام مصر وبابل وأرض الرافدین فی الألفیة الرابعة قبل مولد المسیح علیه السلام تشید إلی تدوال تعدد الآلهة فی هذه المناطق من المعمورة (المصدر نفسه: ٥۰٦). فالتوجهات المادیة کانت متواجدة منذ أقدم العصور والأزمنة عبر التاریخ والتی کانت تنسب مصدر العالم للمعالم المادیة وهکذا سایرت هذه التوجهات مع المنطلقات الفکریة القائلة بماوراء الطبیعة وتبنّت الألوهیة وعبادة الرب (مطهری، ۱۳٥۰: ۱۲). لکن المنطلقات الآنفة الذکر لن تتبدل إلی مدارس فکر ولو أمعنّا النظر فی خلفیة الفکر المأدی لن نری لهذا المنطلق سابقة مفعمة بالفکر المبرمج بل تظهر بصورة شذوات عبر الزمن لن تلفت الانتباه بصورة موسّعة ومن جانب آخر فالتوجه والتمعن فی فکرة الألوهیة و الوحدانیة وعبادة الرب لها تاریخ عریق ترجع بدایاته إلی زمن أنبیاء کنوح وابراهیم علیهما السلام حیث اشادتهما بالتوحید وحتی فی عصر أنبیاء کموسی وعیسی سلام الله علیهما نلاحظ مداولة عبادة الرب علی مر العصور والأزمنة بصور مختلفة وکما نوّهنا سابقاً أنّ تواجد فکرة التوحید وعبادة الإله الواحد کان متداولاً عبر العصور البائدة. من هذا المنطلق فلو أردنا أن نستعرض مسار الفکر حول التوحید ومعرفة الرب وخالق الکون نلاحظ فی الوقت نفسه محطّ أقدام الفکر البشری فی تطویر معرفة الإنسان بما یحیطه.

وقبل الاستدراج فی هذا البحث علینا أن نلاحظ أنّ العبودیة تواجدت منذ ابتداء الخلیقة وقبل خلق الإنسان. یشیر الله إلی هذه النقطة الهامة فی المصحف المرتّل بالآیة الکریمة: «یُسَبِّحُ لِلّهِ مافی السَماواتِ وَالارضْ الملکُ القدوسُ العزیزُ الحَکیم» (الجمعه: ۱). حیث أن الإله یشید

بالفطرة فی مجال معرفة الخليقة والكون حيث توجه الإنسان إلى التوحيد والوحدانية من منطلق الفطرة؛ لكن تطور الفكر البشری أدی إلى ظهور المدارس المختلفة وبعبارة أخری لو أننا أردنا استيعاب مراحل تطوير الفكر البشری سوف نواجه مراحل هذا التطور حسب ما يلی:

١. العهد العتيق؛

٢. القرون الوسطى؛

٣. عصر الأنبثاق؛

٤. عهد الفكر (القرن السابع عشر)؛

٥. عصر التنوير (القرن الثامن عشر)؛

٦. عصر الأمنيات و الفكر المأدی (القرن التاسع عشر)؛

٧. العهد الحديث؛

٨. عصرنا (ويكی بديا، الموسوعة الحرة).

حيث برزت وتواجدت المدارس الفلسفية لدراسة الذات الالوهية خلال هذه العصور والعهود لكن الخوض فی هذه البوادر والظواهر تستلزم بحثاً مشبعاً يقع خارج نطاق ما نحن فيه حيث أنّ الدراسات المؤمی اليها تقع بعيداً عن متناول الأيادی البشرية.

من الممكن أن نعتبر الفكر المادی ونفی الذات الإلهی مساراً لأجتياز ما كانت تشوب الذهن الإنسانی و بالرغم من كل ذلک فإنّ الرؤی المذكورة لن تكوّن مدرسة خاصة بل نضجت على أساس فكرة أو رؤية بيد أنه من المحتمل اعتبار نضوج هذه الرؤی منذ اندلاع عصر التحديث حيث برز إلى الوجود مدرسة تناولت رؤية جديدة إلى الخليقة و الخالق. المراد من المدرسة الفكرية هو تحديد اطار فكری مرتكز على اصول مرتسمة بغية الوصول الی هدف معيّن يتجلی فی تطوير الفكر. و من المحتّم أنّ هذه المدرسة لها مؤسس استفاد من تجارب الماضين كی يضع أسسها. فی ضوء ذلک لن تكن المدرسة خليقة لحظة عابرة و لن يكن مؤسسها من يتابع هذا النمط من الفكر. انما دراستنا تتناول نمطاً معيناً من الفكر يمكن انتسابه الی عصر التنوير. ظهر تفكيک المدارس الفكرية حينما تطرق الذهن إلى أنّ هل المادة تكون سابقة للمعنی؟ وهل أصل الشی يسبق فكرته؟ فالذين يعطون الأولوية للمادة ويعتبرونها هی الموجدة للمعنی ويعدّون التعيّن منطلقا للذهن يعدّون من الماديين والماترياليين والفرقة التی تتبنّی العكس أی تری أنّ المعنی هو مُنشئ المادّة هم المتافيزيقيون والمتمسكون بالمذاهب السماوية (مطهری، ١٣٦٩: ٤٤٣). نلاحظ أن عدداً من المصنّفين يسمّون الفرقتين بالطبيعيين وماوراء الطبيعيين.

فكلّما يمُت بصلة الى الطبيعة وكل مدرسة تعتبر الطبيعة مصدراً للخليقة هـى الماتريالية والتـى تأخد تسميات متنوعة خرجت منها تأسيس مدارس الفكر.

فإحدى هذه المدارس هى مدرسة اللاأدريون (Agnosticism) حيث واضعيها توماس هاكسلى و روبرت أنجروزل والخيّام و أبو العلاء المعرى ومدرسة اللاألوهية (Atheism) التى شيّدها برتراندراسل ومدرسة نفى الإله واستنكار الرب Non theists والتى وضع أساسها مايكل مارتين وأخيراً المدرسة التى تعرف بمخالفة الإله ومواجهة الرب Antitheism على أيدى مفكريها كريستوفر هجينز وريشارد داوكينز.

اللاأدرية (Agnosticism) هى مدرسة فلسفية تعالج الصحيح والخطأ فى شؤون ماوراء الطبيعة كالالهيات و الحياة بعد الموت و وجود الخالق والمعالم الروحية والروحانية و تستشكل وتشكك فى حقيقة العالم و تتبنى عدم مداولة معرفة حقائق الوجود وترى هذه المدرسة أنّ معرفة جزء أو كل حقيقة الوجود بأكملها أمر مستصعب النّيل ونلاحظ أنّ **كانت** و **هيوم** قد وضعا هذه الفلسفة (ويكى بيديا، الموسوعة الحرة).

اللاألوهية (Atheism) هى المدرسة التى تعتقد بإنكار وجود الآلهة فهذه مدرسة تنكر وجود الخالق بصورة عامة. نلاحظ أنّ ٢/٣٪ من النفوس البشرية تذهب على هذا النمط من الفكر بينما يقارب نسبة الذين يصفون أنفسهم بعدم اتّباع دين ما، ما يقارب ١١/٩٪ من النفوس البشرية (ويكى بيديا، الموسوعة الحرة).

استنكارالرب (Non Theists) أى عدم الرضوخ للخالق يطلق على كل من يعتقد بعدم وجود خالق للكون و كذلک على الذين لا يعيرون اهتماماً بوجوده وعدمه.

مخالفة الإله (Antitheism) ضرب من رؤية الكون تتبلور على أساس التشكيک فى وجود الخالق وينفى تواجده ويطيح بكل الأفكار المتبنيّة إثبات وجود الخالق و يشير إلى أنّ فكرة وجود الخالق تكن ذات طبيعة تخريبية وعلى ذلک يجب نفيه بالمرّة وممن تبنّى هذه الفكرة هما كريستوفرهجينز، وريشارد داوكينز (المصدر نفسه).

إنّ ما يتعلق بقبول الإله والإعتقاد بماوراء الطبيعة يفيد إلى وجود ذات منتمٍ إلى الإله الواحد الذى استوعبته البشرية من خلال ماوراء الطبيعة يشبه ما أشار اليه أفلاطون فى «مُثُله» و هى نظرية تستوعب كل المظاهر المادية للكون. فالوجود الذى يتجلّى فى مُثُل أفلاطون يحتوى على أربعة ميّزات هى: الجامعية، الوحدة، الكمال و الثّبات (فشاهى، ١٣٥٤: ٢٢).

لكن إله أرسطاطاليس يكون مجرّداً من المادة بل يحتوى على الفكر (الذهنية) والعينية لكن لم يكن أزليّاً بل يعتبر العامل المحرّک للطبيعة حيث أنّ قوة تحريكه تكن نابعة عن

ذاته فإله أرسطاطاليس هو الغاية القصوى لكل الخليقة والإنسان يكن أقرب موجود اليه (المصدر نفسه: ٣١).

وإله أصحاب مدرسة الفكر والعقل كأبى بكر محمد بن زكريا الرازى والذى ينفى نمط ماوراء الطبيعة التى وضعها أرسطاطاليس يرى الخليقة نتاج خالق الكون حيث يشير هو الآخر إلى المادة لن تصدر عن وجود روحانى بحت وهو يرى بأن العقل و الفلسفة هم العاملان الأساس لمعرفة الكون حيث يقول يشيد: «أنّ العقل هو العامل الوحيد الذى يرشدنا إلى الحقيقة البحتة» (آرمسترانج، ١٣٨٥: ٢٧٥).

إنّ الرؤية الوحيدة التى ترشدنا إلى معرفة الذات الالهى هى الرؤية التى يتبناها الفكر والعقل هو العامل الوحيد الذى يرشدنا إلى الطريق القويم الذى يرتسمه الدين.

وأخيراً فإنّ أصحاب العرفان و المعرفة تمكّنوا من الوصول إلى الحقيقة عبر الشهود التوحيدى فتبنّوا عرفان الخالق على أساسه. فالتجربة العرفانية تمتلك ميزات خاصة تشترك فيها كافة الديانات السماوية فهذا النمط من الفكر والرؤية يرتكز على رحلة نفسانية تقع خارج نطاق المشهودات الخارجية وحتى النصارى أى المسيحيون الذين يتبنون فكرة التثليث والتجسيد وبذلک يقعون فى منأىً عن الفكر التوحيدى يمتلكون تجربة أو تجارب عرفانية لها مشتركات مع ما يتبناه اليهود والمسلمون (المصدر نفسه: ٣٥٠). وفى هذا الصخب نلاحظ أن إله على عليه السلام يحمل صبغة العرفان والعقل والحقيقة حيث يرتسمه فى خطبته كما يلى:

> اَوَلُ الدين معرفتَة وكَمالُ مَعرفَته التَصديقُ به وكَمالُ التَصديقُ بـه توحيدُهُ، وكَمالُ تُوحيدُه الإخلاصَ لَه، وَ كَمالُ الإخلاصَ لَه نَفى الصِفاتِ عَنهُ، لِشَهادَة كُلَ صِفَة أَنَها غَيرَ المُوصوُف، وَشَهادَة كُلُ موُصوفٍ أنهُ غَيرَ الصِفَة، فَمَنْ وَصَفَ اللهُ سُبْحانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرنَهُ فَقَدْ ثَنّاهُ وَمَنَ ثَّناهُ فَقَدْ جَزَأَهُ ومَنْ جَزَأَهُ فَقَد جَهلَهُ وَمَنْ جَهلَهُ فَقَدْ أشارَ إليهِ وَمَنْ أشارَإليهِ فَقَدْ حَدَّهُ وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ وَمَنْ قالَ «فيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ وَمَنْ قالَ «عَلامَ» فَقَدْ أَخْلى مِنهُ. كائِنٌ لا عَن حَدثٍ مُوجودٌ لاعن عَدَمٍ مَع كُّلِ شئىٍ لا بمقارنَه وغَيرُ كُلُّ شئى لا بمُزايله فاعِلٌ لا بمعنى الحركات والآلَة بَصيرٌ اذلا مَنْظوُرَ إلَيهِ منَ خلقه، مُتوحِدٌ اِذ لا سَكَنً يَستأنَسُ بِه وَلا يستوُحِشُ لِفَقْده (*نهج البلاغة*: الخطبة الاولى).

يمكن اعتبار كلام على فصل الخطاب بهذا الشأن لمعرفة الخالق. لكننا لن نتمكن من وضع حد للفكر البشرى إذ يذهب هذا الآخر لدربه كى يستمر ويديم التاريخ فى مساره نحو معرفة خالق الكون بالرغم من وجود تحديات للفكر الألوهى حيث كان ولا يزال يجرّب التواجد لكن الرؤية المتواجدة لدى الإنسان تدل على تطوير الفكر الإلهى يوما بعد يوم.

۴. النتيجة

١. حاجة الإنسان إلى عبودية الرب تكون ظاهرة نابعة من الفطرة البشرية حيث المسار التكاملى لهذه الظاهرة واجتياز البشر مراحل متفاوتة عبر التاريخ.

٢. بالرغم من ظهور الأنبياء لتبيين التوحيد فى كل المجالات لا زلنا نواجه تحدياً خطيراً وهو جدل الموحدين و المشركين فى أنَ الرؤية الدينية تستوعب جميع المجالات أم لا؟

٣. يجب على الفلاسفة والمفكرين أن يسلكوا درب معرفة الحقيقة إثر نزول شأن التمسك بالدين وهذه بادرة تعانى منها الاجتماعات البشرية حين أن ظاهرة فطرة الدين لدى الوجود الإنسانى هى ظاهرة تتجلى لدى البشرية جمعاء وتنفى الصفح عن الدين فى الوجود البشرى حيث الحاجة إلى وجود عال له مرتبة فوق البشر.

٤. استكمال معرفة الرب وعبادته يرجع إلى قصة تواجد الإنسان على وجه البسيطة فاستيعاب الخلق بوجود الخالق كان يلوح فى سماء الفكر منذ فجر تواجد الخليقة ولكن بما أنّ الإعتقاد بالغيب يكون بحاجة إلى استدراک عميق للعالم وشهوده وتبنّى علم حضورى لا يمكننا أن نستسقيه عن طريق علم حصولى حيث أنّ هذا يمكنه إثبات الخالق دون التمكن من الوصول إلى يقين نكن بحاجة اليه.

٥. البشرية جمعاء قد سلكت درباً وعراً للوصول الى خالق قادر مدبر واحد أحد رب الجميع فالإله يكون إلهاً وربّاً توصلت البشرية إلى حقيقته عبر دروب هداهم الخالق إليها. فهذا المسلک يرشدنا إلى عبودية الرب، والأمر كذلک عند تبنّينا للتوحيد ومعرفة الإله الواحد الفرد.

المصادر

القرآن المجيد.

آرمسترانج، كارل (١٣٨٥ه.ش). *تاريخ الفكر الألوهى*، طهران: أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية.

بامفورد باركز، هنرى (١٣٨٠ ه.ش). *الآلهة والبشر*، طهران: القصيدة.

بىواريز، فيليپ (١٣٨٥ه.ش). *موسوعة تاريخ الفكر البشرى*، نخبة من المترجمين و المنقحين، طهران: سماء.

تقىزاده، سيد حسن (١٣٨٢ ه.ش). *معرفة مانى، اشراف ايرج افشار*، طهران: قومس.

جان ناس (١٣٥٤ ه.ش). تاريخ الأديان، الطبعة الثالثة، نشر بيروز، طهران.

جعفرى، محمد تقى (١٣٦٢ ه.ش). *تفسير نهجالبلاغه*، طهران: الثقافة الاسلامية

رضى، هاشم (١٣٤٣ه.ق). *الديانة القديمة الإيرانية منذ ظهور زراتشت*، طهران: مؤسسة نشر آسيا.

روجه جارودى (١٣٦٢ ه.ش). *معرفة فكر هيغل*، طهران: مؤسسة نشر آگاه.

صباغ، عماد، الأحناف (د.ت). *دراسه فی الفکر الدینی التوحیدی فی المنطقه العربیه قبل الإسلام*، نشر محدود، جامعة الأزهر.

طباطبائی، سیدمحمدحسین (١٣٦٣ ه.ش). *المیزان فی تفسیر القرآن*، قم: مؤسسة النشر العلمی و الثقافی.

غرر الفصاحة (١٣٨٨ ه.ش). *مؤسسة النشر لإمام العصر (عج).*

فشاهی، محمدرضا (١٣٥٤ ه.ش). *مدخل إلی الفکر فی العصور الوسطی*، طهران: نشرغوتنبرج.

فوکو، میشال (١٣٨٢ ه.ش). *معرفة جذور الفکر*، طهران: نشر جامعة طهران.

المجلسی، محمدباقر (٣٦٩ ه.ش). *بحار الأنوار*، طهران: دائرة النشر الإسلامیة.

مطهری، مرتضی (١٣٥٠ ه.ش). *أسباب التوجه نحو المادیة*، مشهد: طوس.

مطهری، مرتضی (١٣٦٩ ه.ش). *مجموعة المؤلفات*، طهران: صدرا.

نهج‌البلاغة (١٣٧٧ ه.ش). طهران: نشر و پژوهش فروزان روز.

نهج‌الفصاحة (١٣٨٥ ه.ش). طهران: أکادیمیة العلوم الإنسانیة و الدراسات الثقافیة.

ویکیبیدیا، الموسوعة العلمیة الحرة.